# جـــلفر

## — ٣ —

وَخَرَجْتُ مِنَ الْقَصْرِ ،وَقَصَدْتُ إِلَى بَعْضِ رَبَابِنَةِ السُّفُنِ فِي « لِيلِيبت » وَسَأَلْتُهُمْ عَنْ مِقْدَارِ عُمْقِ الْمَاءِ الذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ « بِلفوِيسُو » . وَعَلِمْتُ مِنْهُمْ أَنَّ عُمْقَ الْمَاءِ لاَ يَزِيدُ عَلَى سِتَّةِ أَقْدَامٍ ، فِي أَعْمَقِ مَكَانٍ فِي الْبَحْرِ . فَطَلَبْتُ حَبْلاً ، وَأَخَذْتُهُ مَعِي ، ثُمَّ خَلَعْتُ حِذَائِي وَأَخَذْتُ أَخُوضُ الْمَاءَ إِلَى أَنْ وَصَلْتُ إِلَى « بِلفوِيسُو » بَعْدَ نِصْفِ سَاعَةٍ ، وَصِرْتُ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ سُفُنِهَا . وَمَا أَنْ رَآنِي الْبَحَّارَةُ ، حَتَّى جَعَلُوا يَقْفِزُونَ إِلَى الْمَاءِ هَرَبًا ؛ وَتَقَدَّمْتُ وَأَخَذْتُ أَرْبِطُ السُّفُنَ جَمِيعَهَا مِنْ مُقَدَّمَاتِهَا ، بِالْحَبْلِ الَّذِي اسْتَحْضَرْتُهُ مَعِي ؛ وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ كَانَتِ السِّهَامُ تَتَسَاقَطُ عَلَى وَجْهِي وَيَدَيَّ ، فَتُسَبِّبُ لِي آلاَمًا شَدِيدَةً !! وَتَذَكَّرْتُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، أَنِّي أَحْمِلُ مِنْظَارِي مَعِي ، فَأَخْرَجْتُهُ وَوَضَعْتُهُ عَلَى عَيْنَيَّ ؛ وَبِذَلِكَ أَمِنْتُ شَرَّ السِّهَامِ ،الَّتِي قَدْ تَصِلُ إِلَى إِحْدَى عَيْنَيَّ ! فَاسْتَطَعْتُ أَنْ أُتَمِّمَ مُهِمَّتِي ، وَأَصْبَحَ أُسْطُولُ « بِلفوِيسُو » كُلُّهُ فِي يَدِي !! فَسَحَبْتُ خَلْفِي ، أَرْبَعِينَ سَفِينَةً مِنْ أَكْبَرِ سُفُنِ « بِلفوِيسُو » . وَعِنْدَ مَا تَأَهَّبْتُ لِلْعَوْدَةِ. أَخَذَ النَّاسُ عَلَى شَاطِئِ الْجَزِيرَةِ يَسْخَطُونَ عَلَيَّ ، وَيَصِيحُونَ بِصَوْتٍ عَالٍ ، وَبَعْدَ أَنْ خُضْتُ الْمَاءَ قَلِيلاً ، وَبَعُدْتُ عَنْ مَرْمَى السِّهَامِ ، خَلَعْتُ مِنْظَارِي ،وَدَهَنْتُ الْجُرُوحَ بِالزَّيْتِ الَّذِي يُزِيلُ أَثَرَهَا ؛ وَلَمَّا اقْتَرَبْتُ مِنْ « لِيلِيبت » وَجَدْتُ الْمَلِكَ وَرِجَالَهُ فِي انْتِظَارِي عَلَى الشَّاطِئِ ؛ وَقَدْ ظَنُّوا أَوَّلَ الْأَمْرِ ، لَمَّا رَأَوُا السُّفُنَ قَادِمَةً نَحْوَهُمْ ، أَنَّ الْعَدُوَّ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْنِي وَأَنَا أَسْحَبُهَا إِذْ كَانَ الْبَحْرُ عَمِيقًا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ، فَلَمْ

وسحبت خلفي أربعين سفينة .

يَكُنْ يَظْهَرُ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ إِلاَّ جُزْءٌ مِنْ رَأْسِي . وَقَبْلَ أَنْ أَصِلَ إِلَى الشَّاطِئِ ، رَفَعْتُ يَدَيَّ بِالْحَبْلِ الَّذِي كُنْتُ أَسْحَبُ بِهِ السُّفُنَ ؛ وَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: « يَعِيشُ أَقْوَى مُلُوكِ « لِيلِيبِتَ » . وَبَلَغَ مِنْ فَرْطِ سُرُورِ الْمَلِكِ ، أَنْ أَمَرَنِي بِالْعَوْدَةِ إِلَى « بِلفُويسُو » لِاسْتِحْضَارِ جَمِيعِ مَا بِهَا مِنَ السُّفُنِ، حَتَّى يَتَمَكَّنَ بِذَلِكَ مِنْ إِخْضَاعِهَا ، وَاسْتِعْبَادِ أَهْلِهَا . فَرَفَضْتُ قَائِلاً لَهُ : « إِنِّي لاَ أَوَدُّ أَنْ تَتَّخِذَنِي وَسِيلَةً لِاسْتِعْبَادِ شَعْبٍ حُرٍّ، وَأَنْ تَسْتَعِينَ بِي لِلْقَضَاءِ عَلَيْهِ . »

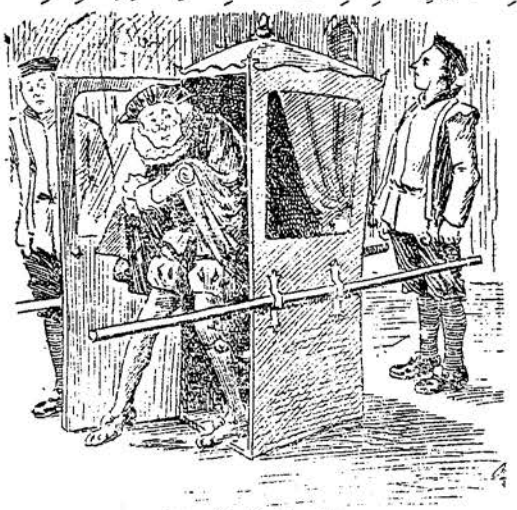

وفى المساء زارنى أحد أصدقاء الملك

وَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ ، غَضِبَ غَضَباً شَدِيداً ، وَبَدَأَ النَّاسُ مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، يَدُسُّونَ لِي ، وَيَتَآمَرُونَ عَلَى قَتْلِي ، أَوْ طَرْدِي مِنْ بِلاَدِهِمْ .

وَبَعْدَ أَنِ انْتَهَتِ الْحَرْبُ بَيْنَ الْبَلَدَيْنِ كَمَا وَصَفْتُ ، أَرْسَلَ إِلَيَّ مَلِكُ « بِلفُويسُو » خِطَاباً يَرْجُونِي فِيهِ زِيَارَةَ بِلاَدِهِ لِيَرَانِي . وَتَذَكَّرْتُ أَوَامِرَ مَلِكِ « لِيلِيبِت » ، الَّتِي تَقْضِي عَلَيَّ بِأَلاَّ أَخْرُجَ مِنَ الْبِلاَدِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ وَاثِقاً مِنْ أَنَّهُ لَنْ يُعَارِضَ فِي خُرُوجِي عَلَى أَيِّ حَالٍ ! فَأَعْدَدْتُ الْعُدَّةَ لِتَلْبِيَةِ الدَّعْوَةِ ؛ وَلَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّ الْمُؤَامَرَاتِ تُدَبَّرُ فِي الْخَفَاءِ لِقَتْلِي . وَفِي مَسَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، زَارَنِي أَحَدُ أَصْدِقَاءِ الْمَلِكِ ، وَكَانَ مُخْلِصاً لِي ، وَقَالَ : « إِنَّ الْمَلِكَ عَلِمَ بِعَزْمِكَ عَلَى زِيَارَةِ مَلِكِ « بِلفُويسُو » ؛ وَهُوَ وَرِجَالُ الْبَلاَطِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّكَ تَقْصِدُ بِزِيَارَتِكَ هَذِهِ مُعَاوَنَةَ « بِلفُويسُو » فِي الْحَرْبِ ضِدَّنَا . مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَصْدَرَ أَوَامِرَهُ إِلَى رِجَالِهِ بِأَنْ يَنْزِعُوا عَيْنَيْكَ، وَأَنْ يَمْنَعُوا عَنْكَ الطَّعَامَ؛ وَأَنْ يَقْتُلُوكَ وَيُقَطِّعُوكَ إِرْباً إِرْباً ، ثُمَّ يَقْذِفُوا بِكَ فِي الْبَحْرِ . »

وَلَمَّا سَمِعْتُ ذَلِكَ ، اشْتَدَّ غَضَبِي ، وَأَخَذْتُ أُفَكِّرُ فِي الِانْتِقَامِ مِنْ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ ؛ وَلَكِنْ ! رَجَعَتْ بِي ذَاكِرَتِي إِلَى مَا أَسْدَوْهُ لِي مِنَ الْمَعْرُوفِ فَلَمْ أَرَ مِنَ الشَّجَاعَةِ أَنْ أُقَابِلَ الْإِحْسَانَ بِالْمُنْكَرِ السَّيِّءِ ، وَعَوَّلْتُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ تِلْكَ الْبِلاَدِ فَوْراً . فَجَمَعْتُ مَلاَبِسِي وَأَشْيَائِي الْخَاصَّةَ ، وَوَضَعْتُهَا فِي سَفِينَةٍ ، وَعَبَرْتُ الْبَحْرَ خَوْضاً ، إِلَى أَنْ وَصَلْتُ إِلَى شَاطِئِ « بِلفُويسُو » ، حَيْثُ

وَجَدتُ رَجُلَيْنِ قَادَانِي إِلَى الْمَدِينَةِ . وَهُنَاكَ قَابَلَنِي الْمَلِكُ وَالْمَلِكَةُ ، بِسُرُورٍ عَظِيمٍ ، وَمَهَّدَا كُلَّ سَبِيلٍ لِرَاحَتِي ، وَإِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَى نَفْسِي ؛ عَلَى أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَنْزِلاً يَتَّسِعُ لِي ، فَاضْطُرِرْتُ لِلنَّوْمِ فِي أَحَدِ الْحُقُولِ فِي الْعَرَاءِ .

وَحَدَثَ بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ، أَنْ كُنْتُ أَمْشِي عَلَى الشَّاطِئِ فَلَمَحْتُ شَيْئاً عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ يُشْبِهُ السَّفِينَةَ ، يَبْدُو عَلَى بُعْدِ مِيلٍ مِنِّي ! فَنَزَلْتُ إِلَى الْمَاءِ ، وَاتَّجَهْتُ نَحْوَهُ لأَتَبَيَّنَهُ فَوَجَدْتُهُ قَارِباً مَقْلُوباً يَطْفُو عَلَى الْمَاءِ . وَعُدْتُ إِلَى الْمَلِكِ وَرَجَوْتُهُ أَنْ يُرْسِلَ مَعِي أَلْفَيْنِ مِنْ رِجَالِهِ لِيُسَاعِدُونِي عَلَى جَرِّ الْقَارِبِ إِلَى الشَّاطِئِ . وَتَمَكَّنَّا بَعْدَ جَهْدٍ مِنْ شَدِّ الْقَارِبِ إِلَى الشَّاطِئِ . وَهُنَاكَ قَلَبْتُ الْقَارِبَ ، فَوَجَدْتُهُ سَلِيماً صَالِحاً لِلْمِلاحَةِ . فَاسْتَأْذَنْتُ الْمَلِكَ فِي الرَّحِيلِ إِلَى وَطَنِي بَعْدَ أَنْ شَكَرْتُ لَهُ حُسْنَ ضِيَافَتِهِ ، فَأَذِنَ لِي بَعْدَ أَنْ أَبْدَى أَسَفَهُ لِفِرَاقِي ، وَزَوَّدَنِي بِكُلِّ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَثْنَاءِ رِحْلَتِي . وَأَعْدَدْتُ كُلَّ شَيْءٍ . وَأَخَذْتُ مَعِي سِتَّ بَقَرَاتٍ . وَكَانَ بِودِّي أَنْ اسْتَصْحِبَ مَعِي بَعْضاً مِنَ الأَهَالِي ؛ وَلَكِنَّهُمْ رَفَضُوا جَمِيعاً . وَفِي أَوَّلِ مَايُو سَنَةَ ١٧١٢ غَادَرْتُ بَلْفُويسُو عَلَى ظَهْرِ الْقَارِبِ ، الذِي وَجَدْتُهُ فِي الْبَحْرِ . وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ . وَبَعْدَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ رَأَيْتُ سَفِينَةً عَلَى بُعْدِ مِنِّي ؛ فَأَشَرْتُ إِلَيْهَا ، وَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي ؛ فَجَاءَنِي بَحَّارَتُهَا ، وَنَقَلُونِي وَأَمْتِعَتِي إِلَى سَفِينَتِهِمْ . وَكَانَ سُرُورِي عَظِيماً بِتِلْكَ الصُّدْفَةِ السَّعِيدَةِ وَازْدَادَ سُرُورِي لَمَّا وَجَدْتُهَا إِنْجِلِيزِيَّةً !! وَهُنَاكَ قَابَلْتُ بَيْنَ رِجَالِ السَّفِينَةِ صَدِيقاً قَدِيماً هُوَ الْمِسْتَرُ «بِيتَرْ وِلِيَمْ» وَهَذَا عَرَّفَنِي بِالرُّبَّانِ ، الْمِسْتَرِ جُونْ بِدِلْ أُوفْ دِتْفُورْدْ ، (John Biddle of Deptford) وَكَانَ رَجُلاً طَيِّباً جِداً . سَأَلَنِي عَنْ أَمْرِي ، فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ رِحْلَتِي إِلَى «لِيلِيبُتَ» وَ «بَلْفُويسُو» وَكَادَ يُرْمِينِي بِالْهَوَسِ ، لَوْلاَ أَنِّي أَرَيْتُهُ سِتَّ الْبَقَرَاتِ ، الَّتِي أَحْضَرْتُهَا مَعِي . وَبَعْدَ رِحْلَةٍ هَادِئَةٍ ، وَصَلْتُ إِلَى إِنْجِلْتِرَا ،

وفى أول مايو غادرت « بلفويسو » على ظهر القارب.

وَهُنَاكَ قَابَلْتُ زَوْجِي وَأَوْلَادِي ، وَسُرُّوا كَثِيراً بِلِقَائِي ؛ وَكَانَ دَهْشُهُمْ عَظِيماً عِنْدَ مَا رَأَوُا الْبَقَرَ الَّذِي أَحْضَرْتُهُ فِي قُبَّعَتِي . وَكَانَ قَدْ نَقَصَ عَدَدُهُ وَاحِدَةً ، أَكَلَتْهَا فِيرَانُ السَّفِينَةِ .

وَبَعْدَ أَنْ قَضَيْتُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ فِي بَيْتِي ، تَأَهَّبْتُ لِرِحْلَةٍ أُخْرَى ؟

# قرطاجنه

وَقَعَتْ حَوَادِثُ هٰذِهِ الْقِصَّةِ مُنْذُ أَلْفَيْ وَخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ تَقْرِيباً ، فِي بِلَادِ فِينِيقِيَا (مَوْضِعِ لُبْنَانَ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ) . وَكَانَ بَيْنَ مُلُوكِهَا فِي ذٰلِكَ الْعَهْدِ مَلِكٌ اسْمُهُ أَجِينُورُ ، مَقَرُّهُ فِي سُور (وَهُوَ بَلَدٌ لَا يَزَالُ مَوْجُوداً فِي لُبْنَانَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ) وَكَانَ لِهٰذَا الْمَلِكِ ابْنَةٌ اسْمُهَا الْأَمِيرَةُ دِيدُو ، اشْتَهَرَتْ بِذَكَاءٍ نَادِرٍ وَجَمَالٍ فَتَّانٍ حَتَّى تَنَبَّأَ النَّاسُ لَهَا بِمُسْتَقْبَلٍ بَاهِرٍ ، وَمُلْكٍ وَاسِعٍ . وَكَانَ لِلْمَلِكِ أَيْضاً ابْنٌ أَصْغَرُ مِنَ الْأَمِيرَةِ اسْمُهُ الْأَمِيرُ بِيجْمَالْيُون ، كَانَ شَدِيدَ الْحُبِّ وَالطَّمَعِ.

وَكَانَتْ سُورُ فِي حُكْمِ أَجِينُورَ ، مَدِينَةً غَنِيَّةً ، يَؤُمُّهَا الْأُمَرَاءُ وَالتُّجَّارُ مِنْ جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْبِلَادِ الْمُحِيطَةِ بِالْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ ، فَيَبِيعُونَ بِضَاعَتَهُمْ وَيَشْتَرُونَ مِنْ نَفَائِسِ فِينِيقِيَا مَا يَشْتَهُونَ . وَكَذٰلِكَ كَانَ أُمَرَاءُ سُورَ وَتُجَّارُهَا يُرْسِلُونَ سُفُنَهُمْ إِلَى الْبِلَادِ الْأَجْنَبِيَّةِ ، مُحَمَّلَةً بِالْبَضَائِعِ الثَّمِينَةِ ، فَتُدِرُّ عَلَيْهِمْ أَرْبَاحاً طَائِلَةً ، وَكَانَ الْأَمِيرُ أَكِرْبَاسُ ، شَقِيقُ الْمَلِكِ ، أَغْنَى تُجَّارِ سُورَ ، وَأَوْسَعَهُمْ سُلْطَةً وَنُفُوذاً فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.

وَكَانَ هٰذَا الْأَمِيرُ يُحِبُّ ابْنَةَ أَخِيهِ الْأَمِيرَةَ دِيدُو ، وَيَعْطِفُ عَلَيْهَا كَأَنَّهَا ابْنَتُهُ ، وَلٰكِنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ أَخَاهَا بِيجْمَالْيُونَ لِطَمَعِهِ وَمَكْرِهِ ، وَكَانَ كُلَّمَا وَرَدَتْ إِلَيْهِ بَضَائِعُ مِنَ الْبِلَادِ الْأَجْنَبِيَّةِ ، اخْتَارَ أَثْمَنَهَا وَأَجْمَلَهَا ، وَقَدَّمَهَا هَدِيَّةً لِدِيدُو ، فَتَأْخُذُهَا مِنْهُ فَرِحَةً شَاكِرَةً ، وَلٰكِنَّ أَخَاهَا كَانَ لَا يَنْفَكُّ يُنَغِّصُ عَلَيْهَا عَيْشَهَا وَيَغْتَصِبُ مِنْهَا بَعْضَ الْهَدَايَا.

وَذَاتَ مَرَّةٍ ، قَدَّمَ لَهَا عَمُّهَا مَجْمُوعَةً مِنْ أَبْدَعِ الْجَوَاهِرِ ، فَلَمَّا سَمِعَ بِيجْمَالْيُون بِذٰلِكَ ، ذَهَبَ إِلَيْهَا وَقَالَ لَهَا : « أَعْطِنِي تِلْكَ الْجَوَاهِرَ ، فَمَا أَنْتِ إِلَّا أَمِيرَةٌ ضَعِيفَةٌ مِسْكِينَةٌ ، أَمَّا أَنَا فَأَمِيرٌ عَظِيمٌ .